

تقنيات البحث الانثروبولوجي الميداني

الملاحظة بالمشاركة انغودجا

الدكتورة نصيرة قشيوش

الملخص:

توفر العلوم الإنسانية العديد من الوسائل الملموسة لتقصي الواقع، و يبقى أن اختيار إحداها يتوقف على أخذ بعين الاعتبار، مزايا هذه الوسائل و عيوبها. و لقد تمت في هذه المداخلة، معالجة تقنية من تقنيات البحث ألا وهي الملاحظة بالمشاركة. و هي تتطلب من الباحث أن يقوم بدور الملاحظ أي مشاهدة الظروف الاجتماعية و المادية و الحضارية للمبحوثين، مع مشاركته في نشاطاتهم اليومية و الاضطلاع على معتقداتهم، و مواقفهم، و أغراضهم، و طموحاتهم. و لكن ليس من السهل أن يقوم الباحث بهذه الأدوار، مما يتطلب منه الاتصاف ببعض الصفات كالصبر و الجلد و أخذ الحيلة و الحذر والفطنة و الوعي، و أن يعقد معهم علاقة ودية ليستطيع العيش وسطهم، و يحقق هدفه ألا و هو الحصول على المعلومات، و الحقائق المطلوبة في البحث العلمي.

الكلمات المفتاحية: تقنية البحث - الملاحظة بالمشاركة - الميدان - الصعوبات - المزايا و العيوب.

Résumé :

Les sciences humaines offrent de nombreux moyens concrets d'enquêter sur la réalité. Le choix de l'un d'eux dépend des avantages et des inconvénients que procure chacun d'eux. Dans cette intervention, un traitement technique des méthodes de recherche de l'observation par la participation. Le chercheur doit jouer le rôle d'observateur examinant les conditions sociales, physiques et culturelles des répondants et ce en prenant part à leurs activités quotidiennes et en mettant en œuvre leurs croyances, leurs attitudes, leurs buts et leurs ambitions. Mais il n'est pas facile pour le chercheur d'assumer ces rôles, ce qui l'oblige à faire preuve de patience, de prudence, de discernement et de conscience, et à entretenir avec eux des relations amicales pour vivre entre eux et concrétiser ses objectifs et acquérir les faits requis dans la recherche scientifique.

Mots clés :

Technique de recherche - Observation participative - Terrain - Difficultés- Avantages et inconvénients.

مقدمة

الملاحظة بالمشاركة تقنية من تقنيات البحث الانثروبولوجي، وهي تتطلب من الباحث اشتراكه في حياة المجتمع الذي يود دراسته، وإقامته فيه مدة من الزمن قد تكون اشهر أو سنوات، و ملاحظة سلوك أفراد ونشاطاتهم، و لكن هل من السهل أن يقوم الباحث الانثروبولوجي بهذا المهام و ما هي الصعوبات التي يواجهها في ميدان عمله؟ وكيف يستطيع أن يكسب ثقة المبحوثين و يحصل على ما يريد من معلومات؟ و ما هي مزايا وعيوب هذه التقنية؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة يجب أولاً تعريف ما يلي

تعريف تقنية البحث: التقنية هي مجموعة من إجراءات و أدوات التقصي المستعملة منهجياً. و التقنيات تشير إلى كيفية الحصول على المعلومات، التي بإمكان هذا الموضوع أن يقدمها (1)

أما كلمة البحث فهي مشتقة من الفعل بحث بمعنى طلب أو تقصى أو فتش والبحث يعني طرق سبل المعرفة في أي علم، وفي أي ميدان، و لكن وفق أسلوب علمي ينبنى على قواعد، و قوانين محددة، و إلا تنعدم صفة النظامية للبحث العلمي. (2)

وتختلف وسائل كل طريقة و فائدتها عن الأخرى، باختلاف الوضع الذي يجد الباحث نفسه فيه، وباختلاف نمط الثقافة والمشكلة الخاصة اللتين يدرسهما (3) فبعض الطرائق التي يمكن أن تصلح لدراسة ظاهرة أنثروبولوجية محددة قد لا يصلح تطبيقها في دراسة ظاهرة أخرى (4)

I- تعريف الملاحظة بالمشاركة

المقصود بها كما يعرفها بعض الباحثين أن الباحث يلاحظ عينة بحثه بطريقة مباشرة، مع أن يشارك أعضائها في عملهم (5). أي أن يكون الباحث الأنثروبولوجي عضواً في الجماعة التي يقوم بدراستها، وان يتجاوب و يتفاعل معها، و أن يمر في نفس الظروف التي تمر بها، و يخضع لجميع المؤثرات التي تخضع لها (6) كان يمارس بعض الطقوس الدينية، أو الاجتماعية، أو يقوم ببعض الأعمال التي تعد من النشاط اليومي للجماعة (7)

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

و يعتبر الانثربولوجيون هم أول من مارسوا الملاحظة بالمشاركة، من خلال عيشهم في وسط المجموعات البشرية، بغية دراستها عن قرب. و لا زالت هذه التقنية مفضلة لديهم، لأنها تكون أكثر قربا من الواقع (8)

II- الصعوبات التي يواجهها الباحث الانثربولوجي في ميدان عمله و الاعتبارات التي يجب أن يراعيها

1- دخول الباحث إلى الميدان

الواقع أن الباحث يواجه الكثير من الصعوبات، و المرحلة الأولى منها هو عند دخوله ميدان البحث. و الباحث في هذه المرحلة، لم يألّف بعض الظواهر و العادات، و السلوك التي تسود مجتمع البحث " فهذه البيئات مغايرة تماما عما اعتادها في بيئته، و هي تفرض عليه الإقامة فيها لمدة لا تقل عن سنة كاملة، و ضرورة تعلم لغة الأهالي و غير ذلك "(9)

عندما ينوي الباحث الانثربولوجي دراسة مجتمع بدائي أو قبيلة بدائية، تختلف عن مجتمعه الأصلي بدرجة تقدمها، و نضجها المادي و الحضاري و التقني، عليه أن يدخل إلى المجتمع أو إلى القبيلة البدائية، بطريقة لا تجلب الشك أو الريبة في نفوس أعضاء القبيلة البدائية، و ذلك من خلال قيامه بتكييف نفسه مع القبيلة تكييفا كاملا اذ انه يتطبع بسلوك و أخلاق و عادات و تقاليد أهلها (10) كأن يلبس مثلهم و يتعلم لغتهم و يشاركهم في أعمالهم اليدوية، و مع مرور الوقت، ستزول تدريجيا تلك الصورة التي كان يحملها عنه الأشخاص موضوع الدراسة في بداية الأمر، بنظرهم إليه كغريب، أو كأجنبي، إلى أن يصلوا إلى اعتباره جزءا منهم(11).

2- الإخباريون

مجلة أنثروبولوجية الأويان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

يحتاج الباحث الأنثروبولوجي بجانب قيامه بالملاحظة بالمشاركة، إلى مصادر أخرى يجمع منها مادته الميدانية، و يعتبر الإخباريون هم أهم المصادر التي تساعد الباحث في جمع المعلومات، التي تتعلق بمجتمع البحث لذلك يجب عليه أن يتقرب منهم، و يعقد معهم علاقة ودية، ليساعده في جمع المعلومات.

" إن معاشة الناس و مشاركتهم أوجه حياتهم، أمران لا غنى للباحث الميداني عن أن يضعهما في حسبانته، و أن يضع نصب عينيه أيضا، أن يكون ذلك مدعاة إلى تكوين علاقات إنسانية، أساسها الثقة المتبادلة و الود والصدقة. إن العامل النفسي له تأثير كبير، فمما لا شك فيه أن العمل وسط أناس يبادلون الباحث الود، و يتفهمون موقفه و دوافعه، و ما يؤديه من عمل يختلف تماما عن العمل وسط أناس غير مهتمين، أو لا يعينهم ذلك العمل في كثير أو قليل، بل قد يسيئون الظن بالباحث و من ثم يعرقلون عمله، لكن على الباحث أن يكون صبورا خلال المراحل الأولى من النزول إلى الميدان، و العمل مع أصحابه فعليه أن يتوقع أن الناس لن تفهمه في البداية، و أنهم سيسيئون الظن به، و أنهم سيقولون له أشياء لا يتصور انه سيسمعها، أو أشياء بعيدة تماما عما يريد " (12)

كما يجب على الباحث مراعاة مستوى الشعوب البدائية عند دراسته لها، فان صيغة السؤال الذي يتطلب إجابات مباشرة لم يكن شيئا ملائما، لان البدائيين لا يملكون تصورات محددة عن أغراض حياتهم و مطالبهم، و هم كذلك لا يستطيعون تفسير دوافعهم بسهولة، و هم أيضا يميلون إلى الاعتقاد بان مخاطبهم شخص ساذج إذا قام بتوجيه أسئلة ساذجة عن الأشياء التي يعرفها كل فرد بالقبيلة. (13) لذلك ابتكر الباحثون الكثير من الحيل ليتمكنوا من الحصول على استجابات من البدائيين، و قد كانت من الحيل الفعالة - دائما- عند بداية البحث الحديث عن الأسلحة البدائية و المعدات، وبما أن الفخر و الزهو بالصناعة شعور عام كذلك -أيضا- الشعور بالبهجة عند توضيح أو تفسير كيفية عمل

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

المعدات و الابتكارات الجديدة، فقد كان الباحث يتلقى استجابات طيبة. و أيضا حيلة أخرى ادخلها (ريفرز)، وهي أن يستميل الشخص المبحوث إلى الحديث عن عائلته ثم يعد مسودة أو رسم تخطيطي بين أصول و فروع العائلة، و يكرر الباحث هذه العملية مع بعض المبحوثين الآخرين، و من شجرة العائلة يمكن للباحث أن يتوصل إلى الكثير من المعلومات عن النظام الاجتماعي، و يمكن له تدعيم هذه المعلومات بالمناقشة مع أشخاص آخرين عديدين من العائلة الواحدة. (14)

كذلك ابتكر الباحث حيلة أخرى ليتقرب من الاخبارين، كان يقدم لهم بعض الهدايا و بعض المساعدات كمكافآت مادية، و بعد ذلك يستفيد منهم عن طريق أسئلة يطرحها عليهم لكي يحصل على المعلومات التي يحتاجها.

و أفضل طريقة لاستنتاج المعلومات هي توجيه اقل قدر من الأسئلة غير مباشرة كلما أمكن، بهدف أو بقصد تشجيع المبحوث على التحدث بحرية وبلا تصنع. (15) و أن تكون على شكل حوار و ليست إجابات منتهية وأن يسأل أكثر من إخباري حول نفس الموضوع لكي يتأكد من صدق المعلومات.

و ما هو جدير بالذكر أيضا، أن تتصف أسئلة الباحث بالموضوعية، و يحرص على ألا تكون مثيرة للإحساس، فعليه أن يراعي تقاليد المجتمع، فلا يسأل عن أمور تتنافى مع قيمه و تقاليده، ولا يسأل المبحوثين في مجتمع متدين عن الشدود الجنسي مثلا، و لا يسأل في مجتمع إسلامي عن عائد تربية الخنزير الخ. و بالطبع فإن الباحث يستفيد في هذا الصدد من فترة الانغماس في المجتمع و هي الأشهر الأولى من إقامته فيه، و يستفيد منها في مراجعة أسئلته بالحذف و كذلك بالإضافة -فكثير من التساؤلات يتم التوصل إليها بعد الإقامة في منطقة البحث و ليس قبل ذلك، و لذلك يجب مراجعة الموضوعات المطروحة للبحث على

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

ضوء رؤيته للواقع الاجتماعي، و ذلك لاستبعاد ما يتناقض مع تقاليد المجتمع وما هو بديهي(16)

و ما يجب ذكره أيضا ان على الباحث أن يتحلى بالصبر و الجلد، و أن لا يكون متسرعاً، و أن يتمتع بقدر كبير من الاهتمام و الوعي بأبعاد الظاهرة التي يقوم بدراستها، و أن يغرق نفسه في حياة الناس، لان البحث لا يتم إلا بالإقامة الطويلة في المجتمع. ودراسة الباحث الانثروبولوجي تهدف إلى تحديد جميع عناصر الثقافة في مجتمع ما فمثلا إذا درس الباحث الانثروبولوجي قبيلة ما، عليه أن يبحث عن كل عنصر مادي أو اجتماعي أو فكري في حياة تلك القبيلة، فعليه أن يهتم بملاحظة مساكنهم و ملابسهم و أدواتهم و نظام العائلة و القرابة و النظام الاقتصادي و المعتقدات و الطقوس الدينية و اللغة المستخدمة و صور الفن المنتشرة، كما يعني أيضا بدراسة النظام السياسي الخ. فهو يدرس كل أنماط السلوك المكتسبة في تلك القبيلة لكي يستطيع تحديد عناصر ثقافتها"(17)

3-طريقة تسجيل الملاحظات الميدانية

يبدأ اهتمام الباحث بجمع المعلومات وتسجيلها، "ولكن عليه أن يحتفظ بمذكراته و بأدواته الأخرى بعيدا عن الأنظار، في خلوة أو عزلة كالمسكن الخاص به حيث تكون أكثر ملائمة أما عن الصور الفوتوغرافية فان الباحث يجب عليه أن يكون حذرا في إدخال هذه الإضافة الضرورية، فعمل الباحث خاصة في حالة بحث الإنسان البدائي الذي يستقبل الصور الفوتوغرافية أو الصوت المسجل بالرعب و الفرع الذي يكمن في ذهنه تجاه الظلام و التخيلات و صدى الصوت إذا ما زادت الحساسية ضد الأجهزة الميكانيكية الحديثة أما إذا كان الباحث يعمل في مناخ ملائم — كما هو الحال في بعض المجتمعات المحلية الحديثة —فان

مجلة أنثروبولوجية الأويان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

الكاميرا و شرائط التسجيل تصبح اكبر معاونة للعمل الحقل، فهي تهيئ له سجلا —دائما — مصنوعا من الموسيقى و الرقصات و النشاطات الاقتصادية ". (18)

و تعد الاحتفالات و المناسبات العامة احد المجالات التي لابد للباحث أن يستثمرها، ذلك أنها تشكل مصدرا هاما من مصادر التعرف على البيئة و على الناس، و على عاداتهم و تقاليدهم و ثقافتهم، كما ان المناسبات و الاحتفالات الخاصة أيضا تشكل مجالا خصبا للباحث كي يعمق صلته بالناس و علاقته بهم 19

و بعد أن تتضح كل جوانب الثقافة للباحث الانثروبولوجي، يبدأ في الخطوة الأولى نحو تنظيم المعلومات و تصنيفها و وضعها في صورة منسقة منطقية. ويستغرق التفسير و التحليل عدة شهور، أو حتى سنوات، و ذلك بعد أن يستكمل البحث الميداني.

III — مزايا و عيوب الملاحظة بالمشاركة

للملاحظة بالمشاركة طموحات أكثر من غيرها لأنها لا تهدف فقط إلى تقديم عناصر عن الوضع بل إنها تطمح كذلك إلى استخراج المعنى الذي يمنحه لها الفاعلين الاجتماعيين، من اجل هذا فالملاحظة بالمشاركة لا تكتفي فقط بالحقل المرئي، بل إنها تستنجد كذلك بوسائل أخرى مكملة للملاحظة مثل مقابلة بعض المبحوثين، و تحليل المادة المكتوبة المتوفرة. يكمن الهدف ادن في الوصول إلى الفهم المعمق للوضع و معانيه، حتى يكون في استطاعة التحليل الموالي إدراك التجربة المعيشة للأعضاء بهدف فهم الوسط الذي يعيشون فيه بكل شمولياته. (20)

و المعلومات التي تأتي من الملاحظة بالمشاركة مهمة بالنسبة للوسائل الأخرى، حيث أن المعلومات الأولية الناتجة عن الملاحظة بالمشاركة تمد الباحث باستبصارات لازمة لتصميم

مجلة أنثروبولوجية (الأويان) العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

الاستثمارات، و الاختبارات السيكلوجية، و غيرها من الوسائل البحثية الأخرى المتخصصة.(21)

كما ان من خلال المعاشية الحية للمجتمع المدروس، و المشاركة الفاعلة في منا شطه يكتسب الباحث مهارة في أداء هذه الأعمال، و قدرته على كتابة تجربته الشخصية فيها و ممارسته لها، و هذا ما يؤدي في النهاية إلى تصوير واقع الشعب المدروس بتفصيلات تتسم بالشمولية و الدقة (22).

وتعتبر الملاحظة أيضا في عين المكان لكونها تمنحنا معرفة نابغة من داخل مجموعة الدراسة. إنها تسمح بمشاهدة الأشخاص في إطار حياتهم اليومية، و ليس فقط بما يتبادلونه من حديث حول ما وقع. تمنحنا هذه الواقعية مكانة فريدة ضمن البحث في العلوم الاجتماعية، ليس فقط في دراسة القبائل المختلفة لكن أيضا تلك المتعلقة بالأوساط الاجتماعية المتنوعة مثل المؤسسات أو الهيئات الشعبية مروراً بعلاقات الجوار أو التجمعات التلقائية (العفوية). غير أن ميدان الدراسة يبقى محدودا، و لا نستطيع الاستماع إلى كل شيء، أو مشاهدة كل شيء، أو يتم قبولنا (كباحثين) في كل مكان بالإضافة إلى ذلك إننا غالبا ما نكون لوحدا أثناء تسجيل مادة مبعثرة و تقييمها. (23)

خلاصة لكل ما سبق نقول إن الباحث الانثروبولوجي عند استعماله لهذه التقنية يقوم بوضيقتين تتمثل الأولى في المشاركة، و الثانية في الملاحظة، و هذا ليس سهلا مما يجعله يفكر و يخطط ليتقرب من المبحوثين. فالشرط الأساسي أن يحملهم على الثقة به، و يكون اهتمامه الأول ألا يخرج عنهم، فيحاول الاندماج في ذلك المجتمع سواء أكان بدائيا أو محليا و لكن عليه أن يكون مدركا بالأمور التي تجري حوله، وان لا ينسى الهدف الذي جاء من اجله أي الحصول على المعلومات التي يستحقها في دراسته.

قائمة المصادر و المراجع

1. مورييس أنجرس -منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية -ترجمة بوزيد صحراوي كمال بوشرف -سعيد سبعون الإشراف و المراجعة مصطفى ماضي -دار القصة للنشر الجزائر 2004-2006 ص107
2. غازي عناية -منهجية البحث العلمي عند المسلمين -الطبعة الأولى -دار البعث للطباعة و النشر -قسنطينة -الجزائر-1985 ص92
3. عيسى الشماس مدخل إلى علم الإنسان -منشورات اتحاد الكتاب العرب -دمشق -2004-ص130
4. المرجع نفسه ص126
5. الرحمان بن عبد الله المالكي -تقنيات إدارة الصف لدى معلمي التربية الإسلامية في المرحلة الابتدائية -مجلة العلوم التربوية و النفسية -المجلد العاشر -العدد الثالث -سبتمبر 2009-ص256
6. إحسان محمد الحسن -مناهج البحث الاجتماعي -دار وائل للنشر -الطبعة الأولى -2005-ص126
7. عيسى الشماس -المرجع السابق ص130
8. مورييس أنجرس -المرجع السابق ص185
9. عبد الله عبد الغني غانم -قراءات و تطبيقات في طرق البحث الانثروبولوجي -الطبعة الأولى -المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية -2004-ص187

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد الرابع والعشرون 24 جانفي 2019

10. إحسان محمد الحسن - المرجع السابق ص 132
11. موريس أنجرس المرجع السابق ص 192
12. احمد علي مرسى - مقدمة في الفلكلور - دار الثقافة للطباعة و النشر - القاهرة - 1981 - ص 172
13. عبد الله عبد الغني غانم - المرجع السابق ص 191
14. المرجع نفسه ص 191
15. المرجع نفسه - ص 108
16. - المرجع نفسه ص 200
17. - عاطف وصفي - الانثروبولوجيا الثقافية - دار النهضة العربية للطباعة و النشر - بيروت - 1971 - ص 16
18. - عبد الله عبد الغني غانم - المرجع السابق ص 108
19. احمد علي مرسى - المرجع السابق ص 177
20. - موريس أنجرس - المرجع السابق ص 185
21. - عيسى الشماس - المرجع السابق ص 131
22. - المرجع نفسه ص 131
23. - موريس أنجرس - المرجع السابق ص 190